الغناء والموسيقى والمجالس الاجتماعية في العصر العباسي

للدكتورة سلمى رحمة الله

قسم التاريخ — كلية البنات — جامعة بغداد

اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بصناعة الغناء والموسيقى. ولم تكن هذه الصناعة جديدة عليهم، فالعرب في الجاهلية كان لديهم غناء بسيط يسمى بالحداء ثم اشتق منه الغناء المعروف، ويقول المسعودي «لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع باللاهي والطرب من العرب»(١). وظهر من المغنين المشهورين في العصر الإسلامي الأول ابن محرز وابن سريج ومعبد والفريض وغيرهم(٢).

وفي العصور العباسية تطورت صناعة الغناء والموسيقى تطوراً كبيراً. وبلغت ذروة الكمال(٣) عند ظهور المغنين كابراهيم وإسحاق وغارن وابن بانة وابن جامع وعلوية هذا وقد شاركت المرأة الرجل في هذا الميدان، وبرزت بعض الجواري المغنيات كمريب جارية المأمون وشارية وبدعة وشاجية وغيرهن كثيرات.

ولا بد من وجود دوافع وأسباب أدت إلى تطور هذه الصناعة تطوراً بعيداً لدى جميع طبقات المجتمع حتى العامة(٤). ونلخص من هذه الأسباب:

١ — التأثر بالفرس ثم بالروم الذين أصبحوا موالي للعرب المسلمين بعد الفتوحات؛ فغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم فلحنوا عليهم الأشعار(٥). هذا فضلاً عن كثرة الجواري اللواتي أخذن كسبايا في الحرب. وأغلبهن من الفارسيات والروميات اللواتي حمل البعض منهن ثقافتهن الأصلية ثم تثقفن على أيدي

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٠

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٠٠

(٤) ابن طيفور: بغداد ص ١٥١؛ التوحيدي: الامتاع والمؤانسة ص ١٧١-١٧٣

(٥) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٠٠

النخاسين ، فبرزن فى الأدب والشعر الغناء وأقيمت الأسواق لبيعهن ، حتى بلغ سعر البعض أربعة عشر ألف دينار[١] وربما أكثر ، ولعب بعضهن دوراً كبيراً فى قصور الخلفاء والأمراء ، كما فعلت عريب التى جمعت بين الأدب والغناء . وهناك البعض ممن برزن فى اللعب على الآلات الموسيقية ، واشتهرت عبيدة[٢] الطنبورية التى جمعت بين الأدب والشعر والموسيقى ، وقد ذكرها الجاحظ فى كتاب « الطنبوريين والطنبوريات » ؛ ومنهن من اتصفن بحسن السلوك والأدب والتصرف مع الغناء . ذكر ابن طيفور أن جارية أهداها عبد الله بن طاهر إلى المأمون فلما دخلت عليه قال لها : غنى يا جارية فغنت وهى قائمة ، فقال لها : لم غنيت وأنت قائمة وما منعك من الجلوس ؟ فقالت ياسيدى أمرتنى أن أغنى ولم تأمرنى أن أجلس فغنيت بأمرك وكرهت سوء الأدب فى الجلوس بغير إذنك . فوهب لها مالا واستحسن ذلك منها[٣] .

أما شاجية التى عرفت بحبها للغناء والموسيقى فقيل أن المعتضد سألها يوماً عند حضورها فى دار الخلافة « هل رأيت شيئاً لم تر مثله عندنا فاستحسنته ؟ » فقالت « لا والله إلا عوداً من عود »[٤] وهى التى شهد لها المغنى جحظة بقوله : فما قولك فيمن يدخل دار الخلافة فلا يعد عينه بشىء يستحسنه سوى عود[٥] . وغيرهن كثيرات .

هذا ، وللمغنين دور كبير فى تطور الغناء والموسيقى ، بعضهم من أصل أجنبى نقلوا الثقافات القديمة وأضافوا إليها ثقافة العرب ، فبرزوا ليس كمغنين فقط بل كأدباء وشعراء — بل حتى فقهاء — مع الغناء والموسيقى . فهذا إبراهيم الموصلى[٦] الفارسى الأصل كان بارعاً فى صناعة الغناء والموسيقى ، حتى أن ثلاثين جارية ضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين فى الأوتار وتراً غير مستو ، فأخذ يشير إلى إحداهن قائلا : يا فلانة شدى مثناك ؛ فتشده وتستوى الأوتار[٧] .

---

(١) الصولى : الأدران ص ١٠١
(٢) الأصفهانى ، الأغانى ج ١٩ ص ١٣٢
(٣) طيفور ، بغداد ص ٩١
(٤) الشابشتى ، الديارات ص ٨
(٥) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦٣ ، ٦٤
(٦) الأصفهانى ، الأغانى ج ٥ ص ١٧٠ وما بعدها
(٧) تاريخ العرب مطول ص ٥٠١ — ٥٠٤ ج ٢

وهكذا كان ابن إسحاق الموصلي له مقدرة وتفهم للغناء والموسيقى كأبيه ، ذكر أن يوماً فى مجلس المأمون جلست عشرة على يمين المأمون وعشرة جوارى عن يساره وممهن العيدان يضربن بها ، وكان ابراهيم بن المهدى حاضراً ، فبدأن بالغناء والضرب ؛ فوجد إسحاق هناك خطأ من الناحية اليسرى ؛ فأنكره إبراهيم وأكد عليه إسحاق ، وظهر صحة قوله وتعيينه للخطأ ؛ فشهد له المأمون ببراعة فى هـــذه الصنعة وتفوقه على إبراهيم بن المهدى ؛ إذ قال لإبراهيم «لأعمار إسحاق بعدها أن رجلا فهم الخطأ بين ثمانين وتراً وعشرين حلقاً لجديد الأغارية »[١] ، ويقول الأبشيهى إن إسحاق كان يصنع الألحان العجيبة . ووصف خرداذبة للمعتمد خصائص المغنى بقوله : « قد تمكن من أنفاسه ولطف فى اختلاسه وتفرغ فى أجناسه »[٢] .

وكان لاهتمام الخلفاء بالغناء أثره فى ارتفاع منزلة المغنين والغناء فى المجتمع ، فالاهتمام بالمغنين كان منذ العهد الأموى حتى قيل أن الوليد هو أول من جلب المغنين من البلدان إليه[٣] . وهكذا فعل الرشيد الذى فاق جميع الخلفاء فى تقديره للمغنين — بالإضافة إلى العطاءات والهدايا — وجعلهم مراتب وطبقات[٤]: أولها إبراهيم وإسحاق وابن جامع وزلزل وغيرهم ، وآخرها أصحاب المعازف والونج والطنابير . وعلى قدر ذلك تخرج جوائزهم[٥] وإذا أظهر أحدهم براعة رفع إلى المنزلة العليا . وهكذا فعل ببرصوما الزامر وهو من الطبقة الثانية عندما طلب منه أن يزمر لغناء ابن جامع فرفض وقال : لاأزمر فإن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى فلا أفعل . فطلب الرشيد من صاحب الستارة أن يرفعه إلى المرتبة الأولى[٦] . وماذا نقول فى تقدير خليفة للمغنين حيث يذهب بنفسه إلى دار المغنى ، كما فعل الرشيد عندما ذهب يوماً مع أربعمائة خادم أبيض إلى دار المغنى إبراهيم[٧] .

---

(١) الأصبهانى ، الأغانى جـ ٥ ص ٢٨٥
(٢) المسعودى ، مروج الذهب جـ ٤ ص ١٦٠
(٣) المسعودى ، مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٧١
(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٠١٦
(٥) الجاحظ ، التاج ص ٣٩
(٦) الجاحظ ، التاج ص ٤١
(٧) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٥ ص ٢١٨

وهذا المأمون الذى اشتهر عصره بالعلم والمعرفة فى جميع النواحى ، كان لا يتردد فى السماح لإسحاق المغنى أن يدخل عليه بزى الفقراء وهو سائر بجانب قاضى القضاة أحمد بن داود ، مما أثار الدهشة عند الناس والحسد لدى مخارق وعلوية[١] . هذا ، وطلب إليه أيضاً أن يدخل مع أهل العلم والأدب والرواة لامع المغنين ، فإذا أراده للغناء غنى[٢] . وسأل المأمون يوماً أن يحضر الصلاة مع الفقهاء فى المقصورة يوم الجمعة ، فأجابه المأمون «ولا كل ذا يا إسحاق، وقد اشتريت هذه المسألة بـ ١٨٠ ألف درهم»[٣] . وهكذا فعل الواثق مع المغنين . قيل كان يحضر إسحاق إلى مجلسه بدون عود ، فإذا طلب منه الغناء أعطى له عود[٤]. وكذلك الراضى[٥] والمقتدر وغيرهم . أما الخلفاء القادر والقاهر والمهتدى الذى طرد المغنين وحرم الغناء ومنع الملاهى وقبضها عليهم من الرجال والنساء والحرائر والأباء وكسر آلات الطرب وأمر ببيع الجوارى على أنهن سواذج ... إلى آخره .

وهناك سبب آخر هو تفهم واطلاع ومعرفة بعض الخلفاء لفن الغناء ، واهتمامهم الشديد بدراسته وتطوره ، وعلى رأسهم الواثق والمعتمد . فالأول له معرفة عميقة بالأهزاج والألحان والأصوات[٦] ، وكان يأمر المغنين بغناء ما يخرجه من الأصوات ويهتم بالتلحين إلى درجة المقارنة بينه وبين إسحاق ، ويشهد له المؤرخون ، فقال السيوطى « وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات وألحان بلغت حوالى المائة »[٧] .

أما المعتمد ـ كما يذكر عنه المسعودى[٨] ـ فكان شغوفاً بالطرب وبفن الغناء والموسيقى ، وكان ملازماً لابن خرداذبة الكاتب المعروف فى الغناء والموسيقى ، إذ

---

(١) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٩ ص ٢٧٦

(٢) و (٣) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٩ ص ٢١٥

(٤) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٩ ص ٢٨٦

(٥) المسعودى ، مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٦١ ، قيل كان لا ينصرف عن مجلسه مغن أو مغنية إلا ويدفع لهم بصلة أو كسرة قلت أم كثرت كما كان يفعل أبو العباس .

(٦) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٩ ص ٣٣٥

(٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٣٦

(٨) المسعودى ، مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥٦

دخل عليه يوماً وفى مجلسه عدد من الندماء فسأله المعتمد عن أنواع الطرب ، فقال على ثلاثة أوجه ؛ ضرب محرك ينعش النفس وضرب شجن وحزن؛ وضرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس ... إلى آخره .

أما آلات الطرب فتتكون من المزمار ، الناى[١] ، الرباب[٢] ، العود[٣] ، الطنبور[٤] ، الرق [٥] ، الطبل[٦] ، المعزفة[٧] ، السكلارنيت[٨] ، السرناى[٩] ، الجنك[١٠] ، الونج[١١] إلى آخره .

فقيل ناى[١٢] زنامى إخترعه زنام ، وأول من ضرب فى هذه الآلة فى عهد المعتصم عاصى الرشيد والمعتصم والواثق والمعتز . أما العود فقد عرف عند العرب وهو من الآلات الوترية ، ووصفه الشعراء بقولهم كثيراً فى شعرهم[١٣] وضرب عليه العرب كثيراً ، ويعتبر من الآلات المرغوبة ؛ أخذ من الفرس ، واستطاع زلزل أن يحدث الضرب على العود بعيدان الشنابيط ، وكانت قبلا على عمل عيدان الفرس ، فجاءت عجيباً من العجب[١٤] ووصف الخوارزمى العود وصفاً دقيقاً وكيفية الضرب عليه[١٥] .

أما الطنبور فيعتبر من الآلات الموسيقية المشهورة والمهمة عند العباسيين ، وسمى أحياناً من يدق عليه باسمه كعبيدة الطنبوريه ، واشتهر بالضرب عليه سليمان

---

(١) الشابشتى ، الديارات ص ٧١

(٢) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧ ؛ التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٩٣

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥١

(٤) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ٧٠

(٥) الشيرازى ، المسبة ص ١٠٩

(٦) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٨

(٧) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(٨) و (٩) الشابشتى ، الديارات ص ٧٢

(١٠) و (١١) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١٢) البحترى ، الآداب السلطانية ص ٣٢٠

(١٣) الشابشتى ، الديارات ص ١٦٨

(١٤) الأصبهانى ، الأغانى ج ٥ ص ٢٠٢

(١٥) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧ — ١٣٨

الطبال[١] وابن القصار فى مجلس[٢] المعز ، وكلاهما من المغنين فى القرن الثالث الهجرى . وأشهر أنواع الطنبور الميزان البغدادى الطويل[٣] . وفى المسعودى وصف شامل للآلات الوترية كآلة المربع والمستطيل والمدورة ، إلى آخره[٤] . أما الطبل فيقول المسعودى أنه أخذ من الفرس[٥] . والرباب وهو ما يجىء حتى يحجى صوته ولايضرب ، عرفت عند الفرس. والقثارة واللوزا وغيرها أخذت من الهنود[٦]. وهناك تشابه مابين المزمار[٧] والكلارنيت[٨] ، وهو آلة ينفخ فيها كالمزمار، وصنعها أحمد بن موسى المهندس ، وعند التصفير يرسل منها الماء فيسمع لها متكونة من عدة دفوف يسمع لها صوت كالجلجل[٩] ، وهناك آلات كثيرة أخرى كالشهروذ[١٠] اخترعت فى القرن الثالث الهجرى (إخترعها حكيم بن أحوص السفدى) وآلة بوران التى سميت الآلة[١١] باسمها وغيرها من الآلات .

---

(١) الشابشتى ، الديارات ص ٩٩ ؛ الأصفهانى ، الأغانى ج ٢ ص ٢٨ - ٣١

(٢) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٧

(٣) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥١ — ٢٥٢

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٨

(٦) ابن الجوزى ، المدهش ص ٢٣٢

(٧) الوشاء ، الموشى ص ١٩١

(٨) الشابشتى ، الديارات ص ٧٢

(٩) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١٠) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١١) سيد أمير على ، ص ٣٩١